الجغرافيا اللغوية

أهمية علم الجغرافيا اللغوية :

لم يحظ علم الجغرافيا اللغوية بكثير من الأهمية إلا فى السنوات الأخيرة ، نظراً إلى وجود ظروف موضوعية حتمت التوسع فى بحوثه . وأهم هذه الظروف هو تقدم وسائل الاتصال والالتقاء ، وقرب المسافات إلى أقصى حد ممكن ، وتحقق الكثير من أوجه التبادل الثقافى والتجارى ، بحيث أصبح أى اضطراب سياسى فى مكان ما لا يؤثر فقط على بلد واحد ، أو منطقة واحدة ، وإنما ينعكس فى مناطق بعيدة من العالم ، ويقول ماريو باى : « إنه ليس مقبولا أو مستساغا الآن أن يعتقد شخص مثقف أن اللغة الأسبانية هى اللغة المتكلمة فى البرازيل ، وأن يتحير أمام صحيفة معروضة فى محل لبيع الصحف ، أهى مكتوبة بالروسية أم البولندية »(١) ، وهو يرى أن الظروف المعاصرة تضطر الدارسين إلى معرفة اللغات الرئيسية فى العالم ، ومكانها على الخريطة ، ومن المتكلمون بها ؟ . وما عددهم ؟ وما قيمتهم من الناحية السياسية والاقتصادية والثقافية .

ولقد يكون من المفيد والضرورى أيضا أن نعرف أن البرازيليين يتكلمون البرتغالية ، وأن اللغة الصينية بلهجاتها المتعددة تملك أكثر من ستمائة مليون من المتكلمين ، وأن الألمانية والروسية يمكن أن تستخدما كلغات بديلة

---

(١) أسس علم اللغة/ ١٧٥

فى المجر ، وفى تشيكوسلوفاكيا ، وأن اللغة الرومانية متفرعة من اللاتينية، وأن اللاتينية متفرعة بدورها من الأسرة الهندية الأوربية[١] .

فهذه كلها معلومات عامة يلم بها المثقفون ، كما يلمون ببعض المعلومات أو الفروق الصوتية ذات الطابع العام .

ولكن الذى أصبح يواجه الإنسانية فى عصرنا هو ما لجأت إليه القوى الكبرى فى العالم من محاولة تغيير الطبيعة اللغوية للمناطق التى تفرض عليها نفوذها ، فأحيانا يراد الإفادة من اللغات الموجودة ، وأحيانا أخرى يراد إحلال غيرها محلها ، وربما كان أكثر الناس حاجة إلى تعلم اللغة الغريبة رجال المخابرات ، الذين يحتاجون إلى تتبع الأخبار فى مناطق نائية ، أو خطيرة فى العالم .

وقد يشارك هؤلاء فى نفس الاهتمام رجال البوليس الدولى ، وقوات الأمم المتحدة ، ورجال الدبلوماسية : « إن هؤلاء يجب أن يلقنوا بعض معلومات عن لغات مناطق أخرى ، ربما تعرضوا للانتقال المفاجىء إليها ، وأهم من هذا ضرورة إعداد دراسات مفصلة ، وعمل إحصاءات عن اللغات والأمية ، والمركز التعليمى لمناطق العالم المختلفة ، وكذلك إعداد علماء لغة جغرافيين مدربين يمكنهم أن يسايروا التطورات السريعة المتوقعة فى هذا الحقل ، وهذه المعلومات أكثر فنية مما قد يبدو للنظرة السطحية »[٢] .

---

(١) السابق .

(٢) السابق / ١٨٦

الأطلس اللغوى ضرورة حضارية :

ومن هذا يظهر لنا أن الاهتمام بالجغرافيا اللغوية يتزايد من آن لآخر ، وأن من الواجب أن نأخذ فى اعتبارنا إجراء مسح لغوى شامل للهجاتنا العربية ، وما يستجد على أرضنا من تأثيرات وافدة ، سواء فى نطاق المفردات أو التراكيب ، وذلك لملاحقة التطورات المستمرة فى ميدان الدراسات اللغوية وفى ميدان نشر الوعى اللغوى على مساحات جديدة من الكرة الأرضية .

إن الرسالة الحضارية للغة العربية تتجاوز قطعا حدود الوطن العربى ، إلى حيث ينبغى أن تزحف العربية فى إفريقيا الباحثة عن لغة إفريقية متحضرة ، وليس سوى العربية يمكن أن يحقق هذا الهدف الاستراتيجى الهام ، لأن اللغة فى هذا المجال تستخدم كوسيلة تفاهم مشترك بين الشعوب التى عانت من الخضوع للاستعمار ، والإكراه على استخدام لغاته الأوربية ، على حين تجد الشعوب الإفريقية لغاتها المحلية متأثرة باللغة العربية ، قريبة الشبه بها ، ولكن للعربية مرونتها وتفوقها الحضارى والتاريخى عليها .

وإلى جانب أن العربية أداة للتفاهم المشترك ، فهى أيضا حاملة لرسالة الإسلام ، الذى ينبغى أن يزحف فى موجة تبشيرية جديدة ، لتنوير شعوب إفريقيا من الناحية الدينية والفكرية ، وهذا فى حد ذاته هدف عظيم ، لأنه يعنى محاصرة أعداء العروبة والإسلام فى مناطق تأثيرهم ، حيث تمرع الصهيونية والصليبية فى أرض إفريقيا دون منازع ، لتضلل شعوبها ، وتشوه صورة الصراع المعاصر بين العرب والصهيونية فى فلسطين .

الأطلس اللغوى ضرورة علمية :

هذا من الناحية الحضارية ، أما من الناحية العلمية الخالصة ، فإن وجود أطلس لغوى للهجات العربية سوف يكون أعظم خطوة . تسجل واقع هذه الأمة ، للتاريخ ، كما أنه سوف يزود الباحثين بأخصب مادة ليجروا بحوثهم انطلاقا مما يقدم من إحصاءات ، ولما يرسم من حدود ، ولما يقدم من معلومات لا تتسنى للباحث الفرد ، ولعله أن يسهم فى وضع مشكلة التقريب بين اللهجات موضع الحسم ، حين يفتح النوافذ على اتساعها بين اللهجات المختلفة ، فتتحول إلى لهجة موحدة مثقفة تتلاشى المسافة بينها وبين اللغة الفصحى الحديثة.

ويذكر بعض الباحثين أن عمل أطلس لغوى للغة العربية سيحدث ثورة فى كل الدراسات الخاصة بفقه اللغات السامية ، لأنه سيكمل دون شك الدراسات التى تعتمد على النصوص القديمة ، حين يكشف عن التطورات المتعلقة باللهجات ، وباللغات الشعبية العصرية ، وسيكون لهذا الأطلس الفضل فى اطلاعنا على تاريخ علم الأصوات ، والتغيرات التى أصابت اللغة العربية فى الأماكن المختلفة التى غزتها ، وعن مدى انتشارها وتأثرها بالمراكز الثقافية ، وتنوع مفرداتها ، إلى غير ذلك من الكشوف التى لا يمكن أن تتم إلا إذا جمعت هذه المواد ، إنه سيكون عملا ثقافيا من الطراز الأول وسيكون تحقيقه عنوان مجد ونخار فى تاريخ الثقافة العالمية[1] .

ومن أهم الأطالس التى تمت للهجات العربية أطلس المستشرق برجشتراسر عام ١٩٥١ ، وبه ما يقرب من ثمانين خريطة ، كما تم عمل أطلس لغوى

---

(١) علم اللغة : مذكرات للأستاذ عبد الحميد الدواخلى ص ٢٦ـ٢٧ .

للجمهورية الجزائرية . أما أطالس اللغات الأخرى فكثيرة ، منها ما وضع لفرنسا ، ولإيطاليا ، ولهولندا ، ولرومانيا ، ولألمانيا والنمسا ، ولأمريكا الشمالية ، ولكورسيكا . . الخ . .(١) .

ولا ريب أن ذلك أمر ممكن الحدوث فى مجال اللغة العربية ، ولهجاتها الحديثة بصورة شاملة . بل إن هذه القضية لتفرض نفسها على جهود العلماء والباحثين فى مجال الدراسات اللغوية الحديثة ، فى هذه المرحلة الكفاحية من تاريخ أمتنا العربية ، فنحن أمة واحدة ، تربطنا روابط كثيرة ، منها العربية ، لغة الدين ، ولغة الحياة ، غير أن الاستعمار قد تربع فى وطننا العربى دهرا طويلا ، استطاع خلاله أن يقسمه إلى دويلات ، وأثر هذا التقسيم على اللهجات المحلية ، فتطورت اللهجات تطوراً كبيرا ، حتى أصبح بعضنا لا يفهم كلام بعض .

ولقد حضرت منذ سنوات إحدى المسرحيات التى قدمها المسرح الكويتى بالقاهرة(٢) فلم أستطع فهم مايقال باللغة الدراجة الكويتية ، إلا بشق النفس ، ولعلى كنت أسعد حالا من غيرى من المصريين الذين حضروا الحفل ، فكانوا يضحكون أحيانا مجاملين فقط ، لا منفعلين بالحدث المسرحى ، أو بالحوار الدائر بين أبطال المسرحية .

هذا التباين اللهجى بحاجة إلى أن يدرس دراسة علمية دقيقة ، تبرز سماته وتحدد أبعاده ، ثم تصف الطريقة التى يمكن بها تقريب الشقة بين هذه اللهجات المتباينة .

---

(١) السابق ٣١ .

(٢) كان ذلك قبل إعارة المؤلف لجامعة الكويت عام ١٩٦٩ .

والوسيلة الوحيدة إلى هذه الغاية هى عمل (الأطلس اللغوى) الشامل الذى يحدد الظواهر الأساسية فى الاختلاف اللهجى ، والتنوع اللغوى ، فى الوطن العربى ، من المحيط إلى الخليج . وليس عمل هذا الأطلس بالأمر اليسير ، إذ أنه يقتضى جيشا من الباحثين اللغويين الذين يقومون بمسح البيئة العربية فى سائر الأوطان ، مسحا شاملا ، عن طريق قوائم الأسئلة ، وتسجيل النماذج الأدبية والفلكلورية ، وقياس مدى انتشار الظواهر المختلفة ، ودرجة أصحابها من الحضارة ، والبداوة ، والثقافة العلمية والاجتماعية ، ومستوى المجموعات اللغوية المعيشى ، ووعيها التاريخى .

ولا شك أن هذه المهمة يمكن أن تشغل مئات من الباحثين سنوات عديدة ، إذا ما أتيحت لها الوسائل المادية ، من الأجهزة والتكاليف والمعونات الرسمية والشعبية ، ومن مستلزمات هذه العملية أن تنهض وسائل الإعلام بدورها الحاسم فى توعية الجماهير بقيمة هذا المسح الجغرافى اللغوى ، وأثره فى تأكيد أمل الوحدة ، ومشاعر القربى بينها على تنائى الأوطان .

ومن المؤلم حقا أن نجد بعض باحثينا يحاولون سنوات أن يدرسوا لهجة أو مجموعة لهجية فى قرانا ، فلا يستطيع أحدهم أن ينهض بذلك العمل العلمى إلا بشق النفس لضعف الإمكانات المادية ، وهو أمر يدل على أننا بحاجة أولا إلى التبصير بقيمة هذه الأبحاث الجادة ، ومناشدة المسؤولين عن الثورة الفكرية والشعبية فى بلادنا أن يولوا هذا الجانب عناية تليق بأملنا فى الوحدة المنشودة بين أرجاء الوطن العربى ، الوحدة التى تتحد فيها الألسنة ، وتختفى الفروق اللهجية الموغلة ، وتتقارب فى ظلها المشاعر والقلوب . وهو أمر نرجو أن نبلغه عما قريب .

على أننا نحذر هنا من خطأ يقع فيه بعض الباحثين فى دراستهم لبعض

اللهجات ، حين يعاملون بعض أجزاء اللهجة فى مناطق معينة على أنها لهجة بذاتها ، غافلين عن بقية المساحة التى تشغلها اللهجة فى واقع الأمر . إن معنى هذا أن يقع الباحث فى أخطاء نتيجة عدم الاستقرار الكامل ، أو نتيجة التعميم القائم على جزئيات لا تمثل المجال اللغوى جغرافيا .

كما ينبغى على الباحث اللغوى أن يتجرد من تأثير العوامل السياسية أو الشخصية على بحثه ، لأن تدخل هذا التأثير يفرض عليه نوعا من تملق الأوضاع الخاصة التى تضعف لديه طابع النزاهة فيما يصدر من أحكام ، ولذلك أمثلة لا مجال لذكرها هنا .

اللغة ـ الشعب ـ الجماعة اللغوية

وإذا كان سوسور قد ذهب إلى التفرقة بين الوجود الفردى للغة فأطلق عليه (الكلام) ، وبين الوجود الجماعى لها فأطلق عليه (اللسان) ـ فإن من الواجب أن نفرق أيضا بين هذه الكلمات الثلاث، التى سوف تتردد كثيرا خلال دراستنا .

فنحن نقول مثلا : إن شعب مصر يتكلم العربية ، كما أن شعب انجلترا يتكلم الإنجليزية ، مشتركا فيها مع الشعب الأمريكى .

فما العلاقة الاجتماعية بين مفهوم كلمة (شعب) ومفهوم كلمة (لسان) أو لغة معينة ؟

وبعبارة أخرى : أيمكن أن نتصور انطباق الحدود السياسية لشعب معين على الحدود اللغوية لنفس الشعب ؟

بالطبع لا . . وأبسط ما يصدق هذا النفى أن نجد العربية مشتركة بين عدد كبير من الشعوب التى تقطن تلك الرقعة الواسعة ، من المحيط الأطلسى ، إلى الخليج العربى ، بل إلى عمق كبير من الصحراء الكبرى داخل إفريقيا ، وتلك مساحة تضم أكثر من عشرين دولة، لكل منها حدود سياسية مستقلة، ولها جميعا حدود لغوية واحدة .

ونجد أيضاً أن اللغة الإنجليزية مشتركة بين جماعة من الشعوب التى لا تنتمى إلى الشعب الإنجليزى ، ومنها الشعب الأمريكى الذى هو جملة أخلاط من

المهاجرين . من شتى أصقاع العالم ، كما يتحدثها الهنود ، وشعوب كثيرة فيما كان من المستعمرات البريطانية فى إفريقيا .

وعلى صعيد آخر نجد اللغة العبرية لغة مشتركة بين السكان فى جزء من فلسطين المحتلة ، على الرغم من تعدد جنسياتهم ، واختلاف انتمائهم .

فهذه أمثلة للغة حين تتجاهل الحدود السياسية ، لتجعل من دول ذات قومية واحدة ، أو من أخلاط ذوى قوميات متعددة ـ وحدة لغوية واحدة .

وفى مقابل ذلك نجد شعبا واحداً يتكلم لغات متعددة ، ومن أمثلة ذلك الشعب السويسرى ، الذى يتحدث فى جانبه المجاور لألمانيا بالألمانية ، ويتحدث فى جانبه المجاور لفرنسا بالفرنسية ، كما يتحدث الشعب الهندى اللغات الأردية والهندية والإنجليزية .

وقد نجد شعبا واحدا ، داخل حدود سياسية مستقلة يتحدث لغة واحدة وهو أمر واضح فى بعض البلدان الإفريقية ذات الطبيعة القبلية .

وهكذا لا نستطيع القول بانطباق الحدود السياسية على الحدود اللغوية فى كل حال ، على الرغم من أن اللغة عنصر رئيسى فى بناء شخصية أى شعب من شعوب الأرض ، وليس على ظهر الأرض قومية لا تتخذ من اللغة أساسا توحد به بين رعاياها ، وإذن فليس بوسعنا أن نطابق بين مفهوم (اللغة) المعينة ومفهوم (الشعب) ، وكل الذى نستطيعه هو أن نحاول فى ابتداء دراستنا للغة معينة أو لهجة ـ تحديد « الجماعة اللغوية » التى نقصد إلى دراسة لسانها ، بحيث يمكننا أن نطمئن إلى أن التحديد الجغرافى للجماعة اللغوية

متوافق مع التحديد اللغوى لوجودها ، وحينئذ نستطيع أن نقوم بدراستنا للغة هذه الجماعة ، دون أن نجد صعوبات ذات طبيعة غير لغوية تحول بيننا وبين هذه الدراسة ، وذلك مع ملاحظة أن (الجماعة اللغوية) تصدق كمصطلح على كل جماعة نقصد إلى دراسة لسانها ، سواء أكانت فى صورة أمة ، أم فى صورة قبيلة ، وسواء أكان موضوع الدراسة لغة كاملة ، أم مجرد لهجة من لهجاتها .

obeikandl.com

المنهج المتبع قديما وحديثا

عرفنا من قبل أن الدراسات اللغوية الحديثة تعنى أتم العناية بدراسة الكلام المنطوق ، سواء أكان لغة عامة يتحدث بها مجموع المواطنين فى أمة من الأمم ، كالعربية فى الوطن العربى ، أم كان لهجة ينطقها سكان قطر أو مدينة أو قرية معينة فى هذا الوطن ، كعامية القاهرة ، أم كان لغة خاصة ببعض الطوائف ، أو الحرف والصناعات ، كذلك الذى يدور بين النجارين ، أو النشالين .

ويحاول الباحثون فى علم اللغة أن يتابعوا هذه المستويات اللغوية ، فى وجودها ، وفى تطورها ، وذلك بدراستهم للأصوات ، والمفردات ، والمعانى ، ولطرق الاشتقاق ، وللتراكيب وطرق بنائها .

غير أن الظواهر اللغوية لا تطرد على نسق واحد فى المجال اللغوى ، بل قد تعترى الصورة الأصلية (المفترضة) بعض الانحرافات الفردية ، التى تتطور لتصبح أحيانا تقليداً اجتماعيا ، يفرض على اللغة وضعا جديدا ، فى نطاق الجماعة اللغوية التى تعيش فى صعيد مشترك .

ومن الواجب أن يقوم البحث اللغوى بدراسة هذا التطور دراسة تنظيمية وتحليلية ، تقيس مداه ؛ وتحدد تأثيره ، وتبين أهميته فى نمو اللهجة أو انحطاطها ، والخطوة الأولى لهذا الغرض هى محاولة تحديد أبعاد الظاهرة اللغوية ، تحديدا جغرافياً ، قبل إجراء أية دراسة من هذا القبيل ، فليست الظواهر اللغوية طليقة بلا حدود ، وإنما هى خاضعة دائما لعامل الزمان

والمكان، وهذا المعامل ذو تأثير كبير على وجود الظاهرة ، وعلى تطورها ، تماما كتأثير المعامل الاجتماعى .

ولقد نجد فكرة الجغرافيا اللغوية لدى اللغوين العرب القدامى ، ولكنها كانت آنذاك غائمة ، وذلك حين يأخذون رواية اللغة عن الأعراب فى البوادى ، فينسبون ما يروونه إلى قائله ، وإلى قبيلته . وحين يضعون هذا المروى فى مقابل ما يروونه من نفس المستوى عن بدوى آخر ، من قبيلة أخرى ، وحين يميزون فى روايتهم بين بعض القبائل التى يصفونها بالفصاحة ، وهى قبائل شمالى الجزيرة ووسطها وشرقيها ، فى مقابل قبائل الحدود والتخوم ، التى يرون أن لغاتها تأشبت (أى فسدت) ، بتأثير القبائل المجاورة ، فقبائل اليمن متأثرة بلغة الحبشة ، وقبائل لخم وجذام متأثرة بمصر وباللغة القبطية ، وقبائل الغساسنة أو المناذرة متأثرة بمجاوريها من الفرس والرومان .

وهكذا نجد أن فكرة وضع الحدود بين اللهجات وقبائلها ليست محدثة ، كما يظن بعض الدارسين ، وإنما هى قديمة ، قدم البحث اللغوى العربى ، غير أنها كانت ـ كما قلنا ـ غائمة ، لأنها لم تأخذ صورة علمية صارمة تهتم بمحاولة وضع منهج للباحثين اللغويين ، كما تهتم بمحاولة رسم خرائط مفصلة عن وجود الظواهر وانتشارها وهى ، خرائط تؤدى فى نهاية الأمر إلى تكوين الأطلس اللغوى ، الخاص بلهجة أو مجموعة لهجات ، أو بلغة ، أو مجموعة لغات .

هذه الفكرة الأخيرة هى هدف الدراسات اللغوية الحديثة ، وبخاصة حين ترى أن تقوم بدراسات مقارنة بين اللهجات المختلفة من لغة واحدة ،

أو بين اللغات المختلفة من فصيلة واحدة . وقد تعددت محاولات الباحثين والعلماء فى هذا المجال ، إلى أن جاء سوسور ليحدثنا عما أسماه بعلم اللغة الجغرافى Linguistique Géographique[1] وهو العلم الذى يدرس العلاقة بين الظاهرة اللغوية ومجال انتشارها ، أى أنه يترك علم اللغة الداخلى ، ليدرس علم اللغة الخارجى .

وهو يقرر فى بدء دراسته لهذه المشكلة أنه إذا كانت الاختلافات اللغوية تخفى عن أعين الباحثين فى نطاق الزمان ؛ فإن هذه الاختلافات تقفز إلى عين المرء بحسب المكان ، مهما كان ضئيل الحظ من الثقافة ؛ بل إن البدائيين أنفسهم يدركون ذلك حين يتصلون بالآخرين ، من القبائل المجاورة التى تتحدث بلسان آخر ، وبفضل هذه المقارنة يدرك الشعب ، أى شعب ، مثله المختار فى اللغة .

ويستطرد سوسور فيقدم لنا دراسة عميقة عن (تنوع اللغات واختلافها)، وعن (تعقد الاختلافات الجغرافية) ، وهو فى هذا الفصل يدرس قضية تعايش لغات كثيرة فى مكان واحد ، وقضية اللغة الأدبية واللهجة المحلية ، ثم يدرس فى فصل مستقل عوامل الاختلاف الجغرافى ، وأثر الزمن فى هذا الاختلاف ، وتأثيره كذلك فى الرقعة الجغرافية ، ثم يمضى إلى أن يقرر أن اللهجات ليست لها حدود طبيعية ، بل إن هنالك تدخلا فى هذه الحدود ، وهو شأن اللغات أيضاً .

---

(١) سوسور Cours de Linguistique Générale . ص ٢١٦

وجاء من بعده تلميذه اللغوى الكبير أ . مييه[1] ليقدم لنا قواعد المنهج الذى ينبغى اتباعه عند اللجوء إلى هذا المستوى من البحث فى اللغة ، من وجهة النظر الفرنسية ، كما قدم لنا نماذج من التطبيق العلمى لمنهجه ، وبذلك استقرت قواعد المنهج المقارن فى هذا الجانب الهام من الدراسة تحت اسم (الجغرافيا اللغوية)
La géographie Linguistique

الأطلس الفرنسى :

ويجدر بنا أن نعرض حديثه فى شىء من الوضوح ، وإن كان الاقتباس طويلا بعض الشىء ، إلا أنه حديث علمى يعبر عن تجربة غنية نصف جهود اللغويين الأوربيين فى هذا المجال ، قال : « يهتم اللغويون ، منذ أن يشرعوا فى وضع أوجه اتفاق محددة وقياسية بين الأحداث الصوتية والصرفية التى تحتويها (لغة مشتركة) ، والتى تحتويها لغات أدنى منها رتبة ـ يهتمون بالبحث عن نماذج لغوية صرفة ، وموحدة ، بحيث يمكن للقواعد أن تنطبق عليها بدقة . وتنطوى اللغات الكبرى على عناصر شديدة الاختلاف ، ومن المقرر أن اللهجات ذاتها لا تعرف الوحدة .

لقد فكر اللغويون فى أن الكلام الشعبى الذى يلحظ فى قرية محدودة المساحة يمكن أن يقدم لنا هذه الوحدة العنصرية التى يحتاج إليها اللغوى ، فقاموا بدراسة كلام القرى .

وقد قاموا بعمل إحصاءات على مستويات من الكلام شديدة التنوع والاختلاف ، وبعض هذه الإحصاءات موجز وسطحى ، وبعضها الآخر مفصل وعميق ، وقد أدت الإحصاءات المحددة إلى معلومات هامة يمكن بها

---

(١) أنظر : أنطوان مييه Methode comparatif en Lingu. historique

obeikandl.com

التعرف على نموذج اللغة تعرفا دقيقا ، وهى ذات فائدة قصوى بالنسبة إلى علم اللغة العام .

بيد أن عالم المقارنات اللغوية ، الذى يريد أن يؤرخ لمجموعة لغوية معينة — لا تكفيه الإحصاءات الدائرة حول لهجات الخطاب ، وهى صعبة التناول ، ذلك أننا نجد فى مجال متوسط المساحة ، كالمجال الغالى الرومانى Gallo-Roman أكثر من ثلاثين ألف قرية ، تصلح لهجاتها موضوعا للوصف ، وبذلك تتجاوز المهمة بصورة واضحة مستوى القدرة على العمل ، والموارد المادية التى يتحكم فيها اللغوى » .

وما زال مييه حتى الآن يعالج موضوع اختيار المجال الذى تدرس فيه الظاهرة اللغوية ، وهو ما واجه الباحثين ، ومساعديهم بصعوبات كثيرة ، أهمها كثرة عدد القرى ، التى أربت على أكثر من ثلاثين ألف قرية .

وقد كان السبب فى هذه الكثرة أن البحث كان يريد أن يغطى مساحة كبيرة جداً من الأوطان الأوربية ، وهو أمر شبيه بما إذا أردنا هنا أن نجعل مجال بحثنا رقعة الوطن العربى كله ، من المحيط إلى الخليج .

وإذا كنا حتى الآن ما زلنا عاجزين عن مسح البيئة اللغوية فى مصر . بطريقة علمية منظمة ، وإذا كنا ومازلنا نجتزىء فى بحوثنا اللغوية بمجرد الأمثلة التى نقتبسها من الاستعمالات المألوفة والجارية ، دون أن نتعمق باطن الريف المصرى ، فكيف بنا لو أردنا أن ندخل فعلا إلى عملية المسح الشامل؟ وما حجم الإمكانات التى يرجى أن تتاح للمشرفين على هذا المسح ، سواء من المساعدين اللغويين ، أم من أجهزة التسجيل ؟ .

ولقد يلقى ضوءاً أكبر على صعوبات هذه العملية ما يقرره مييه بعد ذلك من غزارة المعلومات المجموعة : « فالذى نفترضه واقعا هو أن اللغوى سوف يكون عاجزاً عن التصرف فى ذلك الحشد من المعلومات اللغوية ، التى ربما احتوت تكراراً لا نهاية له . فرغم أن كل قرية لها خصائصها المقتصرة عليها ـ نجد أن الأحداث والنماذج اللغوية تتجمع فى المجالات الواسعة .

فهذا من ناحية كثرة المعلومات المجموعة . وأما من ناحية نوعية هذه المعلومات ، فإن هناك صعوبة أخرى ، هى أن المعلومات التى نتلقاها من مساعدين مختلفين ليست متماثلة تماما فيما بينها ، وإذا حدث أن الاستقصاء لم يكن منظما تبعا لقواعد موحدة بالنسبة إلى المنطقة المدروسة بأكملها ، فسنجد أن كل إحصاء يقدم بطريقة مختلفة ، وأن الأحداث اللغوية التى يحتويها أحد الإحصاءات لا تسهل مقارنتها بأحداث إحصاء آخر ، بل إنه مع فرض أن التحقيق قد تم منظما ، وأن الإحصاءات قد أجريت بطريقة موحدة ـ وهو أمر نادر ـ فإن المساعدين لا يستطيعون أن يلاحظوا الأحداث اللغوية ، ولا أن يسجلوها بطريقة واحدة . بل إنه مما لا يمكن تحاشيه أن نجد بعض الباحثين يزيدون فى منطقة ، ويقلون فى منطقة أخرى ، كما أن كثافة الملاحظين أمر لا يقارن باختلاف الباحثين .

وفى نهاية الأمر نجد أن اللهجات لا وحدة لها . بالقدر الذى يبدو لنا لأول وهلة ، فالأفراد المتكلمون فى إحدى القرى ، حتى لو كانت صغيرة ، تتنوع ألسنتهم غالبا ، تبعا للسن ، وللوضع الاجتماعى ، وللاهتمامات . الخ. وليس كل المتكلمين من أصحاب القرى ، وليسوا جميعاً متساوين فى الولاء للعرف المحلى .

فلو أن إحصاء ما لإحدى اللهجات المحلية راعى كل هذه الفروق الفردية، لأصبح معقداً يعسر استخراج شيء منه يصلح للمقارنة اللغوية. ولو أنه أغفلها فلن يعطينا فكرة صحيحة عن حالة اللهجة ، إذ أنه سوف يبسط الأمور تبسيطا متعسفا ، وسوف يقعّد ويخطط شيئاً لم يصفه .

وهكذا يصور ميبه كل توقعات الصواب ، واحتمالات الخطأ فى أية عملية للمسح اللغوى يراد إجراؤها فى بيئة تتصف بالاتساع والتنوع ، بل والتضارب فى أكثر الأحيان ، وفى بيئة كالبيئة العربية لابد أن نتوقع الظاهرة ونقيضها ، سواء فى مستوى الأصوات ، أو فى مستوى الظواهر الصوتية ، كمواقع النبر ، وطريقة التنغيم ، وذلك لتراحب المجال الجغرافى واختلاف المؤثرات الخارجية فى اللهجات المحليـــة ، ففى الشمال الإفريقى يغلب التأثير الفرنسى ، وفى بعض البلدان كليبيا ، يبرز التأثير الإيطالى ، وفى بعضها الآخر يتجلى التأثير الانجليزى ، على حين تقف بلدان أخرى بمنأى من عوامل التأثير اللغوى نظرا لعزلتها . وهى مناطق كثيرة فى شبه الجزيرة العربية ، وفى مقدمتها اليمن الشمالية فى جنوبى الجزيرة .

تنفيذ المنهج :

ويستطرد الأستاذ ميبه فى عرض الشروط الواجب توفرها عندما يراد دراسة مجموعة من اللهجات على هذا النحو ، فيقول : فإذا أريد الشروع فى دراسة مجموعة من اللهجات الحديثة بالطريقة المقارنة فإن البحث يجب أن يكون منظما بحيث يمكن أن يستخدم فى يسر عند المقارنة .

فيجب أولا : أن تكون لدينا ملاحظات موزعة بشكل متساو على مجموع المجال موضوع الدراسة ، والمثل الأعلى فى هذا الباب أن نلاحظ جميع القرى .

غير أنه إذا كان مجال البحث عاديا ، حيث تتجمع لهجات متماثلة على صعيد ذى امتداد معين ، وحيث لاتختلف لهجة قرية من القرى عن لهجة جارتها اختلافا جوهريا — فإنه يكفينا أن نفحص عدة قرى نختارها بصورة اعتباطية ، وبحيث تكون لدينا شبكة من الملاحظات التى تغطى البلد بأكمله، وتقدم لنا (عينات) من جميع النماذج . وكلما كانت الشبكة ضيقة المسافات ، أعنى : دقيقة ، قل احتمال أن تفوتنا جزئيات مهمة ، وكنا واثقين من وضع حدود مضبوطة لكل حدث من الأحداث اللغوية .

غير أن أهم شىء بالنسبة إلى المقارن اللغوى هـــو أن يبدأ بالعناصر والمعلومات التى تسمح له بأن يقوم مجموع المجال اللغوى بطريقة متعادلة .

ويجب ثانيا : أن تكون المعلومات متماثلة ، بعضها مع بعض ، ومن أجل هذا الهدف يجب أن يكون التعليم الذى يقدم فى هذا الصدد منصبا على أحداث تنتمى إلى نظام واحد ، كأن يدور حول كلمات ذات صيغةواحدة، أو صيغ متعددة لكلمة واحدة ، تنتمى إلى اللغة المشتركة فى المجال كله ، أو كلمات ذات معنى واحد ، وصيغ واحدة ، أو صيغ نحوية ذات قيمة واحدة . . الخ . .

ولكى نقوم بحق هذه الضرورة المزدوجة يجب أن نضع قائمة بالأسئلة التى توجه إلى جميع القرى ، والتى سوف يدور حولها البحث : فنذكر مثلا الطريقة التى تنطق بها الجمل المعينة فى كل قرية من قرى البحث اللغوى .

ولهذه الطريقة المعتمدة على قوائم الأسئلة عيوب خطيرة :

ذلك أن اللغة التى يصاغ بها السؤال ، والتى هى أساسا اللغة العامة فى

البلد توشك أن تؤثر على الفرد القروى ، فتحوله عن لهجته الخاصة — فلكى نحصل على إجابة واحدة يمكن أن نسأل فردا واحدا .

وبما أن اللهجة المحلية ليست واحدة فإن هذا الفرد عاجز قليلا أو كثيرا عن تمثيل مجموع خصائص اللهجة ، (أى أنه يعطينا نموذجه الخاص المنتمى إلى لهجة قريته) ، ولاريب أن هذه الطريقة غير محكمة ، وتقريبية ، غير أنها الطريقة الوحيدة الممكنة .

ومن الممكن أن نتصور طريقتين لعمل البحث اللغوى :

فاما أن نعد قائمة تقدم فى المجال اللغوى ليجيب عنها شخص تتمثل فيه الخصائص اللغوية بقدر الإمكان ، ليشير إلى الوجه الذى تنطق به الكلمة فى لهجته ، كما اعتاد هو أن ينطقها ، دون تأثر بغيره[١] ، وإما أن نرسل باحثا[٢] يسأل فردا معينا حول نقطة يراد بحثها ، ثم يذكر بنفسه الإجابة ، وهذه هى الطريقة التى اتبعت لعمل الأطلس اللغوى الخاص باللهجات الغالية الرومانية Callo-Romains ، وهو الأطلس الذى قام به الأستاذم. اد مونت ، حين اصطحب معه قائمة بأسئلة أعدهـــا له الأستاذم . جيبرون ، فزار وحده جميع القرى التى كان ينبغى بحثها ، واختارا فردا واحدا ، من كل منها ، وذكر بنفسه الوجه الذى يؤدى به ذلك الفرد ما احتوته القائمة من جمل .

وفائدة هذه الطريقة الثانية أنها تستقدم شهوداً متماثلين بقدر دقيق فيما

---

(١) سوف يأتى أن هذه هى الطريقه التى اتبعت فى وصنع الأطلس اللغوى الألمانى .

(٢) هذا هو النموذج الفرنسى فى إعداد الأطلس اللغوى .

بينهم ، وأنها لاتعنى بالانحرافات أو التشويهات التى تنتج عن شخصية الباحثين على اختلافها .

وهكذا وجدنا أن البحوث عن اللغات الغالية الرومانية قد تجددت بفضل الأطلس اللغوى الذى صنعه ادمونت وجيليرون ، وأن الدراسات التى أثارها نشر هذا الأطلس تتضاعف ، وأن دراسات أخرى لاتكاد تنتهى حول المعلومات التى سجلها عن اللهجات فى تلك المنطقة الواسعة .

وقد لمس اللغويون منذ ذلك الحين ، فى كل وطن أن النتائج التى يحصلون عليها باتباع المنهج الجغرافى ، نتائج مفيدة وآسرة ، ذلك أن مشكلة اللهجة قد وجدت حلها ، حين أصبح فى الإمكان رسم الحدود بين اللهجات ، فكل لهجة تبدو فى صورة مجموع يحمل سمات خاصة تخالف بها اللهجات الأخرى ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى لم يكن بوسع الباحثين أن يجدوا حدودا معينة بين اللهجات ، أما الآن فيكفى الباحث اللغوى أن يتصفح الخرائط ، ليتخيل الحقيقة المتمثلة فى أن لكل حدث لغوى حدوده الخاصة .

وإلى هذا ينتهى علاج الأستاذ أنطوان منية لخطوط المنهج الجغرافى ، المطبقة على اللهجات الفرنسية ، ولاريب أن الحديث على هذا النحو يكشف عن الصعوبات التى تكمن فى طريق البحث ، والجهود التى ينبغى رصدها ، أو بذلها لتحقيق تقدم فى دراسة من هذا القبيل. بيد أن الجهود مهما تضاعفت لا يمكن أن تكون أغلى من إنجاز أطلس للهجات العربية المتناثرة على صفحة هذا الوطن ، المترامية الأطراف ، ومن الممكن أن تتعاون فى مشروع هذا الأطلس المؤسسات الثقافية التابعة للجامعات الإقليمية ، عندما يتحقق نوع من التنسيق فيما بينها ، فى إطار أجهزة الجامعة العربية .

ولاريب أن الحديث المفصل الذى نقلناه عن الأستاذ مييه يكشف بجلاء حقيقتين هامتين :

أولاهما : أن الرأى الذى نادى به سوسور ، من قبل ، وهو أن اللهجات ليست لها حدود طبيعية ـ لايقصد به أن هذه اللهجات لاتعرف الحدود مطلقا ، وإنما يراد به أن الحدود اللهجية لا تنطبق على الحدود الطبيعية دائما ، وهذا الانفصال مما يألفه اللغوى بين حدود الدولة السياسية أو الطبيعية وبين حدود لهجتها أو لغتها ، التى قد تزحف وراء الحدود .

وثانيتهما : أن الأطالس اللغوية قد ساعدت تماما على رسم الحدود اللغوية للهجة ، وأن ذلك قد تم تطبيقه فى مجال اللغات الغالية — الرومانية Gallo-Romans (على أساس رسم حدود الأحداث اللهجية ، إذ أن لكل حدث مجال انتشاره الخاص به) .

الأطلس الألمانى [1] :

هذا عن المنهج الفرنسى فى تنفيذ الأطلس اللغوى ، فأما عن الأطلس الألمانى فقد قام على إنجازه اللغوى الألمانى فنكر Wenker ، حيث اعتمد على وضع مجموعة من الجمل تصل إلى الأربعين ، وهى تمثل أهم ما يجرى على ألسنة الناس فى الحياة اليومية . وكان الهدف هو معرفة الطريقة التى ينطق بها الناس هذه الجمل ، فى اللهجات المختلفة ، مع مراعاة تضمنها لأهم الظواهر النطقية التى تتميز بها اللهجات .

ولذلك فقد تضمنت الاستمارة الخاصة بالاستبيان معلومات يجب إثباتها عن الراوى اللغوى ، والجهة التى ينتمى إليها ، وعن المسجل اللغوى الذى

(١) تناول هذا الموضوع بالبحث الأستاذ عبدالحميد الدواخلى فى مذكرة لغوية ، وعليه اعتمدنا

كان غالبا من بين المعلمين فى المدارس الإبتدائية ، ربما لضمان ألا يتدخل فى تسجيل الظواهر ، نظراً لضآلة ثقافته ، ولاتصاله اللصيق بالجماهير .

وقد أرسلت هذه القوائم إلى جميع نواحى ألمانيا ، التى بلغت أكثر من خمسين ألف ناحية .

وبعد جمع البيانات على النحو المطلوب أرسلت البطاقات إلى مركز رئيسى لتفريغها ، وتصفية الملاحظات اللهجية بها ، بالنسبة إلى كل كلمة ، سواء من حيث النطق ، أو الترادف ، ويوضع ذلك كله على خرائط تفصيلية للمواقع اللغوية المستفتاة . وبعد ذلك ترسم الخريطة العامة فى ضوء الخرائط الجزئية .

وقد إشترط فنكر فى الراوى اللغوى ، وهو الذى تسجل لهجته : أن يكون من صميم أهل البلد ، وألا يكون نزح عنها إلى نواح أخرى أحيانا ، حتى لا تتأثر لهجته بمؤثرات خارجية ، وأن يكون قليل الحظ من الثقافة ، وأن يكون صريحا مخلصا فى إجاباته ، وأن تكون مخارج حروفه سليمة .

وقد قسمت البطاقة إلى قسمين : أولهما : أثبتت فيه الجملة باللغة الفصحى ، وثانيهما : ترك لإثبات النطق اللهجى موضوع البحث .

وقد أخذ على هذه الطريقة فى الاستفتاء أنها تضع بين يدى الراوى اللغوى نموذجا باللغة الفصحى ، ربما يؤثر على أدائه وتمثيله الصحيح للخصائص اللهجية المطلوب إثباتها ، يضاف إلى ذلك أن المسجل اللغوى كان هو الذى يتولى تسجيل الإجابات ، دون الراوى .

كما أخذ على هذه الطريقة أيضاً أن اقتصار الاستفتاء على أربعين جملة ، أو بالأحرى على عدد محدود من الجمل قد لا يغطى كل الاحتمالات اللهجية ، فيأتى العمل ناقصا .

وإن كان مجال الاستفتاء قد شمل أكثر من خمسين ألفاً من القرى والمواقع ، وهو أمر يوحى لنا بضخامة العمل ، وشموله لكل رقعة فى الوطن الألمانى .

* * *

الفرق بين النموذجين :

من هذا العرض يتضح أن بين النموذجين ملامح مشتركة ، كما أن لكل منهما صفاته الخاصة :

وأهم ما يجمع بينهما وحدة الهدف ، فهما يدوران حول فكرة وضع الأطلس اللغوى ، عن طريق الاستفتاء ، ورصد الظواهر اللهجية فى ألسنة الناطقين بها ، بالقدر اللازم من الحياد العلمى .

ولكن أهم الفروق بينهما :

١ ـ أن النموذج الألمانى يعتمد على مجموعة محدودة من الأمثلة ، على حين يقدم النموذج الفرنسى مئات الأسئلة للاجابة عليها .

٢ ـ أن الجمل الألمانية هى تراكيب جاهزة يطلب من الراوى أن ينطقها بلهجة ، على حين أن الراوى فى النموذج الفرنسى هو الذى يقدم التركيب ، إجابة عن سؤال موجه إليه ، وفى ذلك من حرية التعبير ما يكشف عن المزيد من الظواهر الخفية ، أو غير المحسوبة .

٣ ـ يبدو أن الفريق الفرنسى من المسجلين اللغويين كان قد تلقى تدريبا كافيا ، من الناحيتين الصوتية والنحوية بوجه عام ، ولذلك كان تسجيلهم لما يتلقون عن الرواة ـ موضع ثقة واطمئنان .

وإذا كان الأساس الذى يقوم عليه عمل الأطلس اللغوى لغويا بالدرجة

الأولى ، فإن الوسيلة إلى تحقيقه هى الإحصاء الشامل للظواهر ، وأمثلتها ، ولهجاتها ، ورواتها ، لضمان توفر المعلومات الكاملة، أو القريبة إلى الكمال ، على أن وسائل العصر الحديث التى أتاحتها ثورة التكنولوجيا ، وفى مقدمتها العقل الالكترونى (الكمبيوتر) - تعتبر من أعظم المعينات فى إنجاز الإحصاءات اللغوية .

ولقد تم فى العامين الآخيرين بنجاح كبير إحصاء جذور مفردات اللغة العربية ، فى جامعة الكويت ، باستخدام الكمبيوتر ، وكان ذلك بإشارة من الأستاذ الدكتور إبراهيم أنيس ، تلقاها أستاذ الفيزياء النظرية بكلية العلوم ، الدكتور على حلمى موسى ، فأنجز إحصاء جذور معجم (الصحاح) ومعجم (لسان العرب) وكانت هذه التجربة الناجحة داعية إلى أن يتعاون مؤلف هذا الكتاب مع الدكتور حلمى فى إنجاز إحصاء دقيق وشامل للغة طبقا لمعجم (تاج العروس) أكبر المعاجم العربية ، وقد طبعت هذه الإحصاءات كلها فى جامعة الكويت .

ولا شك أن هذه الخطوة الإحصائية تمهيد لما يمكن أن يسمى بعلم اللغة الإحصائى ، الذى قد يتسع مجاله ليشمل اللهجات ، فيساعد بذلك فى تتبع الظواهر وانتشارها على ألسنة المتكلمين ، وهو الأساس المنهجى لعمل الأطلس اللغوى.